المثال الثالث عشر

قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً" [يس: ٧١] .

والجواب: أن يقال: ما هو ظاهر هذه الآية وحقيقتها حتى يقال إنها صرفت عنه؟

هل يقال: إن ظاهرها أن الله - تعالى - خلق الأنعام بيده كما خلق آدم بيده؟

أو يقال: إن ظاهرها أن الله - تعالى - خلق الأنعام كما خلق غيرها، لم يخلقها بيده، لكن إضافة العمل إلى اليد والمراد صاحبها معروفٌ في اللغةِ العربيةِ التي نَزَلَ بها القرآن الكريم.

أما القول الأول فليس هو ظاهر اللفظ لوجهين:

أحدهما: أن اللفظ لا يقتضيه بمقتضى اللسان العربي الذي نزل به القرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" [الشورى: ٣٠] ، وقوله: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الروم: ٤١] ، وقوله: "ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ" [آل عمران: ١٨٢] ، فإن المراد: ما كسبه الإنسان نفسه وما قدّمه وإنْ عَمِلَهُ بغير يَدِهِ، بخلاف ما إذا قال: عَمِلْتُهُ بيدي، كما في قوله تعالى: "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" [البقرة: ٧٩] ، فإنه يدل على مباشرة الشيء باليد.

الثاني: أنه لو كان المراد أن الله - تعالى - خلق هذه الأنعام بيده لكان لفظ الآية: خلقنا لهم بأيدينا أنعامًا، كما قال الله - تعالى - في آدم: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ" [ص: ٧٥] ؛ لأن القرآن نزل بالبيان لا بالتعمية؛ لقوله تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ" [النحل: ٨٩] .

وإذا ظهر بطلان القول الأول تعين أن يكون الصواب هو القول الثاني؛ وهو: أن ظاهر اللفظ أن الله - تعالى - خلق الأنعام كما خلق غيرها ولم يخلقها بيده، لكن إضافة العمل إلى اليد كإضافته إلى النفس بمقتضى اللغة العربية، بخلاف ما إذا أضيف إلى النفس وَعُدِّيَ بالباء إلى اليد، فتنبه للفرق؛ فإن التنبه للفروق بين المتشابهات من أجود أنواع العلم، وبه يزول كثيرٌ من الإشكالات.

التعليق

هذه المسألة ذكرها ابن تيمية في التدمرية في القاعدة الثالثة من القواعد النافعة [١] , ذكر أن من أغلاط بعض الناس جعل اللفظ نظيرًا لما ليس مثله، كما قالوا في قوله تعالى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" [ص: ٧٥] إنها نظير لقوله تعالى: "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا" [يس: ٧١] ، فجعل الآيتين كلاهما من قبيل واحد , ومن يقول ذلك يريد أن يتوصل إلى أن قوله تعالى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" [ص: ٧٥] مثل: "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا" [يس: ٧١] لا تدل على المباشرة باليدين أو وقوع الفعل باليدين , وإنما تدل على أنه خلق آدم بقدرته كما خلق الأنعام بقدرته , فجعل آية (ص) كآية (ياسين) .

وقد فنَّد شيخ الإسلام - رحمه الله - هذا القول ببيان الفرق بين الآيتين في الأسلوب , فقال: إنه في آية (ياسين) أضاف الفعل إلى الأيدي، وقال: "مما عملت أيدينا" [يس: ٧١] , كما قال في الآية الأخرى: "فبما كسبت أيديكم" [الشورى: ٣٠] ؛ وأما في آية (ص) فأضاف الفعل إلى نفسه وعداه إلى اليد بالباء فقال: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" [ص: ٧٥] . وأيضًا، فإنه ذكر الأيدي في آية (ياسين) بلفظ الجمع، وفي آية (ص) بلفظ التثنية، وأيضًا فإنه ذكر نفسه هو - سبحانه وتعالى - بصيغة الجمع في آية (ياسين) , وذكر نفسه في آية (ص) بلفظ المفرد , ثم نظَّر لهذه الآيات، فقال: إن آية (ياسين) من حيث إسناد الفعل إلى الأيدي كآية الشورى "فبما كسبت أيديكم" [الشورى: ٣٠] , وآية ياسين من حيث ذكر المثنى بصيغة الجمع كقوله: "تجري بأعيننا" [القمر: ١٤] فذكر المثنى بصيغة الجمع , وقوله تعالى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" [ص: ٧٥] نظير لقوله: "بل يداه مبسوطتان" [المائدة: ٦٤] من حيث ذكر اليدين بلفظ التثنية , فبان من ذلك بطلان من يجعل آية (ص) كآية (ياسين) ؛ بل بينهما فروق.

---

(١) التدمرية (ص ٢٢١) ، وانظر شرحها في: شرح الرسالة التدمرية (٢٢٢ - ٢٢٦) .

إذن، فآية (ياسين) لا تدل على حصول الخلق باليدين , فلا تدل على أن الله خلق الأنعام بيديه بينما آية (ص) تدل على أن الله خلق آدم بيديه , والقول بأن آية (ياسين) تدل على خلق الأنعام باليدين يؤدي إلى أن آدم ليس له فضيلة وليس له خصوصية , وكذلك إذا قيل: إن آية (ص) كآية (ياسين) لا تدل على الخلق باليدين، فإن ذلك يقتضي نفي اختصاص آدم بهذا الشرف وهذه الفضيلة.

والحاصل: أنه يفرق في اللغة العربية بين إسناد الفعل إلى الأيدي وإسناد الفعل إلى الفاعل وتعديته إلى اليد أو اليدين بالباء , ففرق بين قول

القائل: (هذا ما فعلت يداك) , هذا لا يدل على أنه قد جناه بيده , فتقول لإنسان تكلمَ بكلامٍ أَضَرَّ بِهِ وَسَبَّبَ له ضررًا: (هذا ما فعلت يداك) , وهو إنما جنى بلسانه أو برجله , ولكن إذا قلت: (هذا ما فعلت بيديك) فإن هذا يدل على أن الجناية حصلت باليد , بقتلٍ أو ضربٍ أو ما أشبه ذلك , كما ذكر الشيخ من الفروق "ذلك بما قدمت أيديكم" [آل عمران: ١٨٢] ، وقوله: "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم" [البقرة: ٧٩] ، فإذا أسند الفعل إلى الفاعل وعُدِّيَ بالباء دل على أن الفعل حصل ووقع باليد , وإذا أسند الفعل إلى الأيدي "فبما كسبت أيديكم" [الشورى: ٣٠] "بما قدمت أيديكم" [آل عمران: ١٨٢] "بما قدمت يداك" [الحج: ١٠] ، فإنه - حينئذٍ - لا يدل على خصوص ما جناه المكلف بيده، بل ذلك عام , فقوله "فبما كسبت أيديكم" [الشورى: ٣٠] يساوي (بما كسبتم) ؛ والله أعلم.

المثال الرابع عشر

قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" [الفتح: ١٠] [١].

والجواب: أن يقال: هذه الآية تضمنت جملتين:

الجملة الأولى: قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ" [الفتح: ١٠] ، وقد أخذ السلف - أهل السنة - بظاهرها وحقيقتها، وهي صريحة في أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يبايعون النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه كما في قوله تعالى: "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ" [الفتح: ١٨] .

ولا يمكن لأحد أن يفهم من قوله تعالى: "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ" [الفتح: ١٠] أنهم يبايعون الله نفسه، ولا أَنْ يَدَّعِيَ أن ذلك ظاهر اللفظ لمنافاته لأول الآية والواقع، واستحالته في حق الله - تعالى -.

وإنما جعل الله - تعالى - مبايعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبايعةً له؛ لأنه رسوله وقد بايع الصحابة على الجهاد في سبيل الله - تعالى -، ومبايعة الرسول على الجهاد في سبيل مَنْ أرسله مبايعةٌ لمن أرسله؛ لأنه رسوله المبلغ عنه، كما أن طاعة الرسول طاعة لمن أرسله لقوله تعالى: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" [النساء: ٨٠] .

وفي إضافة مبايعتهم الرسولَ - صلى الله عليه وسلم - إلى اللهِ - تعالى - مِنْ تشريفِ النبي - صلى الله عليه وسلم - وتأييده وتوكيد هذه المبايعة وعظمها ورفع شأن المبايعين ما هو ظاهر لا يخفى على أحد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٤) ، الرد على البكري (١٥٩، ١٨٧ وما بعدها ط. القديمة) وَ (١٣١، ١٦٧ وما بعدها تحقيق: عبد الله السهلي) ، نقض الدارمي (٢/ ٦٩٥) .

الجملة الثانية: قوله تعالى: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم" [الفتح: ١٠] وهذه - أيضًا - على ظاهرها وحقيقتها، فإن يد الله - تعالى - فوق أيدي المبايعين؛ لأن يده من صفاته، وهو سبحانه فوقهم على عرشه، فكانت يده فوق أيديهم. وهذا ظاهر اللفظ وحقيقته وهو لتوكيد كون مبايعة النبي - صلى الله عليه وسلم - مبايعة لله - عز وجل -، ولا يلزم منها أن تكون يد الله - جل وعلا - مباشِرَة لأيديهم، ألا ترى أنه يُقَال: (السماء فوقنا) مع أنها مباينة لنا بعيدة عنا؟! فيد الله - عز وجل - فوق أيدي المبايعين لرسوله - صلى الله عليه وسلم - مع مباينته - تعالى - لخلقه وعلوه عليهم.

ولا يمكن لأحد أن يفهم أن المراد بقوله: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم" [الفتح: ١٠] يد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولا أن يدعي أن ذلك ظاهر اللفظ؛ لأن الله - تعالى - أضاف اليد إلى نفسه، ووصفها بأنها فوق أيديهم، ويد النبي - صلى الله عليه وسلم - عند مبايعة الصحابة لم تكن فوق أيديهم؛ بل كان يبسطها إليهم، فيمسك بأيديهم كالمصافح لهم، فيده مع أيديهم لا فوق أيديهم.

التعليق

هذه الآية مما يشبه به خصوم أهل السنة، ويدعون عليهم بأنهم يأولونها بخلاف ظاهرها، فإنهم يزعمون أنَّ ظاهرها أن يد الله فوق أيدي المبايعين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن أيديهم مباشرة ليده - سبحانه -، وهذا زعم باطل.

فأول الآية وآخرها يرده.

وأيضًا، فإنَّ من المعلوم أنه يستحيل أن يبايعوه نفسه بأن يضعوا أيديهم في يده - سبحانه وتعالى - , لكنهم بمبايعتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بايعوا الله - سبحانه وتعالى - , مثل: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" [التوبة: ١١١] , هذه الآية تشبه "من يطع الرسول فقد أطاع الله" [النساء: ٨٠] .

أما قوله تعالى: "يد الله فوق أيديهم" فهذه المسألة فيها بحث , والحقيقة أن هذا التوجيه الذي ذكره الشيخ - رحمه الله - ليس بظاهر، إذ ليس لهم فيه خصوصية , فيد الله فوق أيديهم وأيدي الناس كلهم، فلا يفيد معنى يشعر بعظمة هذه البيعة.

قال ابن القيم - رحمه الله - في زاد المعاد [١]: (ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله، وأكدها بكونها لله سبحانه "من يطع الرسول فقد أطاع الله" [النساء: ٨٠] , من بايع الرسول فقد بايع الله، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذلك وهو رسوله ونبيه، فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعته بيعته؛ فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده) .

وكأنه يريد أن يجعل هذا من جنس ما جاء في الأثر: "فمن استلمه وقبله، فكأنما صافح الله وقبل يمينه" [٢]، فقوله: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" [الفتح: ١٠] يعني: كأن يد الرسول الذي هو مُبَلِّــغٌ عن الله شرعَه ودينَه بايعهم , فَيَدُهُ فوق أيديهم وهو رسول الله، وبيعتهم له بيعة لله؛ فكأن يد الله - سبحانه وتعالى - فوق أيديهم، وإذا كان الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وَقَبَّلَهُ فكأنما صافح الله وَقَبَّلَ يمينه، فَيَدُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولى بهذا من الحجر الأسود.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٧٥) .

(٢) سبق تخريجه في صفحة رقم (...) .

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى: (وفي قوله: "يد الله فوق أيديهم" [الفتح: ١٠] وجهان من التأويل:

أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه - صلى الله عليه وسلم -.

والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله - صلى الله عليه وسلم - لأنهم إنما بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على نصرته على العدو) [١].

والمعنى الأول الذي ذكره الطبري قريب من كلام ابن القيم، والكلام الذي قاله ابن القيم في الآية هو أقرب ما يكون.

فقوله: "يد الله فوق أيديهم" [الفتح: ١٠] ترشيح لقوله: "إنما يبايعون الله" [الفتح: ١٠] يعني: تأكيد، فلما قال: "إنما يبايعون الله" أكد ذلك بقوله: "يد الله فوق أيديهم" فمن بايع الرسول فكأنما بايع الله يعني: بيده.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢٥٤) .

المثال الخامس عشر

قوله تعالى في الحديث القدسي: "يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني ..." الحديث [١].

وهذا الحديث رواه مسلم في (باب فضل عيادة المريض) من (كتاب البر والصلة والآداب) (رقم ٤٣ / ص ١٩٩٠ ترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي) ، رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "إن الله - تعالى - يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أَمَا علمتَ أنك لو عُدته لوجدتني عنده؟! يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي" [٢].

والجواب: أن السلف أخذوا بهذا الحديث ولم يصرفوه عن ظاهره بتحريف يتخبطون فيه بأهوائهم، وإنما فسروه بما فَسَّرَهُ به المتكلم به، فقوله تعالى في الحديث القدسي: "مرضت" "واستطعمتك" "واستسقيتك" بَيَّنَهُ الله - تعالى - بنفسه حيث قال: "أما علمت أن عبدي فلانًا مرض" "وأنه استطعمك عبدي فلان" "واستسقاك عبدي فلان" وهذا صريح في أن المراد به: مَرَضُ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، واستطعام عبد من عباد الله، واستسقاء عبد من عباد الله، والذي فسره بذلك هو الله المتكلم به وهو أعلم بمراده، فإذا فسرنا المرض المضاف إلى الله والاستطعام المضاف إليه والاستسقاء المضاف إليه، بمرض العبد واستطعامه واستسقائه = لم يكن في ذلك صرفٌ للكلام عن ظاهره؛ لأن ذلك تفسير المتكلم به فهو كما لو تكلم بهذا المعنى ابتداءً، وإنما أضاف الله ذلك إلى نفسه أولًا للترغيب والحث؛ كقوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ" [البقرة: ٢٤٥] .

---

(١) درء التعارض (١/ ٨٥، ٣/ ١٣، ١٩) ، جامع الرسائل (المجموعة الأولى / ١٢١) ، مدارج السالكين (١/ ٢٩٨، ٣/ ٤١١) ، شرح الرسالة التدمرية (٢١٦ - ٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) .

وهذا الحديث من أكبر الحجج الدامغة لأهل التأويل الذين يحرفون نصوص الصفات عن ظاهرها بلا دليل من كتاب الله - تعالى - ولا من سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وإنما يحرفونها بِشُبَهٍ باطلةٍ هم فيها متناقضون مضطربون. إذ لو كان المراد خلاف ظاهرها - كما يقولون - لبيَّنَه الله - تعالى - ورسوله، ولو كان ظاهرها ممتنعًا على الله - كما زعموا - لبينه الله ورسوله كما في هذا الحديث. ولو كان ظاهرها اللائق بالله ممتنعًا على الله لكان في الكتاب والسنة من وصف الله - تعالى - بما يمتنع عليه ما لا يُحصى إلا بكلفة، وهذا من أكبر المحال.

وَلْنَكْتَفِ بهذا القدر من الأمثلة لتكون نبراسًا لغيرها، وإلا

فالقاعدة عند أهل السنة والجماعة معروفة، وهي إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وقد تقدم الكلام على هذا مستوفًى في قواعدِ نصوص الصفات، والحمد لله رب العالمين.

التعليق

هذا الحديث الأخير ذكره شيخ الإسلام في التدمرية وفي مواضع أخرى [١] , وبَيَّنَ أن بعض الناس يقول: إن ظاهر هذا الحديث معنى فاسد , وأنه لا بد من تأويله , وَيَرُدُّ الشيخ بقوله: إن الحديث ليس ظاهره المعنى الفاسد , الحديث مُفَسَّر وإذا كان مُفَسَّرًا لم يجز أن يقال: إن ظاهره معنى فاسد.

نعم لو جاء الحديث: "عبدي مرضت فلم تعدني، عبدي استطعمتك فلم تطعمني" وفي لفظ: "عبدي جعت فلم تطعمني" "عبدي استسقيتك فلم تسقني" لقلنا: يصح أنْ يُقال: إن ظاهره معنى فاسد , لكن الحديث ما جاء هكذا [٢] , وأنا أقول للتقريب: لو قال قائل: إن ظاهر الآية "فويل للمصلين" [الماعون] تهديد ووعيد للمصلين , لكان مبطلًا , فليس هذا هو ظاهر الآية , لأن الآية موصولة "الذين هم عن صلاتهم ساهون" [الماعون] فهذا فيه تهديد ووعيد للساهين عن صلاتهم، لا تهديد ووعيد للمصلين.

إذن، الآية ليس ظاهرها ذلك المعنى الفاسد، فكذلك الحديث , فالذي قال: "عبدي مرضت" , "عبدي استطعمتك" , "عبدي استسقيتك" , هو الذي فَسَّرَ ذلك بقوله: "مرض عبدي فلان" "استطعمك عبدي فلان" "استسقاك عبدي فلان" فالحديث واضح، ولا يصح أنْ يقال فيه: إِنَّ ظاهره معنى فاسد فيحتاج إلى تأويل، فرحم الله الشيخ وأثابه على ما وضَّح وبيَّن.

---

(١) التدمرية (٢١٦ - ٢١٩) ، وتقدمت الإشارة إلى بعض هذه المواضع.

(٢) أي: أنَّ الحديث لم يأتِ هكذا فقط دون زيادة، فتكملة الحديث أوضحت المعنى، والله أعلم.